المقاومة الفلسطينية: من الحجر إلى الصاروخ

ما بعد تراجع دور النضال الفلسطيني ومنظمة التحرير واليسار، تمكّنت المقاومة الفلسطينية، مطلع الثمانينيات، من بدء حالة نضال جديدة، انتقلت من المجموعات المغلقة والصغيرة إلى حالة مؤسسية تحاكي إلى حدٍّ ما مزيجاً بين حرب العصابات والمنظومة الرسمية للجيوش النظامية. وصاغ هذه الحالة تنوّع عملاني سار على نحو تصاعدي يمكن رصده

بين انتفاضتين وثلاث حروب

التكتيكات تغيرت

مسافة أربع سنوات كافية لتقوي المقاومة ذراعها وتطور مداها الصاروخي (أشرف عمرة ـ آي بي ايه)

غزة ـ **عروبة عثمان**

منذ اللحظة الأولى لانتهاء الحرب الثانية على غزة عام 2012 (عمود السحاب)، اهتمت فصائل المقاومة الفلسطينية بالتركيز عسكرياً على الناحيتين الكميّة والنوعيّة، وترافق ذلك مع خطوات لتحصين الجبهة الداخلية والحفاظ على تماسكها. وفي مراحل فاصلة، برزت الندّيّة على المستوى المعلوماتي والأمني، ما قلّل منسوب الخسائر لديها بصورة ملحوظة. وأمس مثلاً، أعلنت سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة «الجهاد الإسلامي»، نعيها نحو 120 مقاتلاً قضوا في خمسين يوماً، بل إن عدداً منهم استشهد وهو موجود في بيته خلال قصفه مع العائلة، أي خارج ساعات الخدمة.

حتى على مستوى الحرب النفسية الذي يحتاج النجاح فيه إلى العمل وفق علوم عسكرية حديثة، عملت سرايا القدس عام 2012 على إرسال رسائل عبر الهواتف المحمولة إلى خمسة آلاف جندي وضابط إسرائيلي باللغة العبرية، ما شكل سابقة جديدة، وأيضاً سارت كتائب القسام (حماس) على النحو نفسه في هذه الحرب، لكن باستثمار الطاقة الصاروخية عبر دعوتها العلنية للاحتلال إلى تفعيل منظومة القبة الحديدية بأقصى طاقاتها، مع إعطاء موعد التاسعة مساءً لقصف عشرة صواريخ لم تستطع المنظومة، رغم الغطاء الجوي للطيران الحربي، منعها من الانطلاق أو إسقاطها كلها، علماً بأن الكتائب دعت وسائل الإعلام إلى تغطية هذا الحدث. لم تستطع المقاومة فعل كل ذلك إلا بإتقانها التخفّي البشري لعناصر المقاومة، والتمويه على مواقع إطلاق الصواريخ. هذا على كفّ ميزان، وعلى الكف الآخر كان التسلل خلف خطوط العدوّ مدعاة إلى قلق الجنود والمستوطنين من العمليات المفاجئة، وهو ما استفادت المقاومة منه في بث رسائل رعب أخرى. من هنا، يمكن البحث في كيفية انتقال المقاومة من الدور الدفاعي إلى آخر مبادر عبر 28 سنة من الانتفاضة والحروب.

الانتفاضتان الأولى والثانية

لم يكن التمايز في الانتفاضة الأولى (1987- 1993) واضحاً، لأن البيئة التي أطلقت شرارة الانتفاضة كانت شعبوية بحتة، ولم تتصل بحالة منظّمة تدير دفتها أي من حركات التحرّر الوطني بالدرجة الأساسية. تدرّجت هذه الانتفاضة في أداء

> **عملت المقاومة على تصغير حجم العبوات مع الحفاظ على تأثير قوي لها**

الفعل المقاوم على ثلاث مراحل مركزية: الأولى مرحلة انتفاضة الحجارة، والثانية حرب العصابات والسكاكين، والثالثة العمليات الاستشهادية.

مع هذا العمل الفردي والجماعي، ارتقت فصائل المقاومة، وخاصة «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، إلى وضع جديد من التكثيف الكميّ والنوعيّ للأعمال العسكرية. كانت الكتابة على الجدران في تلك الأيام جريمة يعاقب عليها الاحتلال، وشمل الجرم بالتأكيد عمل الفصائل والناس على المقاومة بالحجارة والمقلاع والزجاجات الحارقة حتى السلاح الأبيض. رغم الهوّة الكبيرة بين أسلحة المقاومة والاحتلال، فإن الفصائل تنبّهت إلى ضرورة تفعيل الذراع الإعلامية في موازاة المقاومة المحدودة، فخلق ملثّمو الفصائل ظاهرة الكتابة على الجدران لتوجيه رسائل تعبويّة إلى الشعب الفلسطيني وترسيخ الجدار النفسي الفاصل بينه وبين عدوّه.

أما الأجنحة العسكرية، فبدأت تبدع في حرب العصابات مع دقة إصابة الأهداف العسكرية على وجه التحديد، ما أسهم في استنزاف المكوّن البشري الأساسي في جيش الاحتلال الذي كان منتشراً في شوارع القطاع ومخيماته.

وكانت العمليات آنذاك تُدار على نحوٍّ فردي. ولمع نجم مدرسة عماد عقل العسكرية (حماس) ومحمد الصوري (سرايا القدس)، ثم بدأ استحداث وحدات هندسة خاصة بالمتفجّرات والأحزمة الناسفة ليدوّي معها زمن العمليات الاستشهادية الذي بقي مستمراً خلال الأعوام الأولى من الانتفاضة الثانية، قبل أن تفكّك السلطة الخلايا العسكرية للتنظيمات الفلسطينية في الضفة المحتلة، إضافة إلى رفع العدوّ منسوب الإجراءات الأمنية.

وتابعت المقاومة في الانتفاضة الثانية الاستمرار بنهج العمليات العسكرية والاستشهادية، لكن عملية السور الواقي التي نفذها جيش الاحتلال عام 2002 وبناء جدار الفصل العنصري عرقلا استكمال العمليات الاستشهادية، وأشارت عدة مصادر إلى أن إيقاف المقاومة لها جاء لأسباب داخلية لم تصرح بها.

هذا دفع المقاومة إلى العمل على تكوين قوة صاروخية بدأت من صواريخ محلية الصنع لم يتجاوز مداها 3-2 كلم، وصولاً إلى المواجهة الأخيرة (راجع العدد 2380). لكنها في المقابل أبدعت في عمليات اقتحام المستوطنات والمواقع العسكرية على الحدود مع القطاع حتى جاء الانسحاب الإسرائيلي من غزة عام 2005، لتتجه المقاومة نحو ابتكار حرب الأنفاق التي حفرت أسفل المواقع الإسرائيلية لتفجيرها، وأيضاً بعض المحاولات لتنفيذ عمليات في البحر.

في المقابل، ظل الاحتلال ينفذ عمليات توغل برية واقتحامات لثلاثة أعوام متتالية، وواجهته الأذرع العسكرية بالقذائف المضادة للدروع والعبوات الناسفة، وأوقعت في صفوفه خسائر كثيرة، خاصة مع استطاعتها تفجير دبابات «الميركافاه»، وهي عملت أيضاً على توفير مخزون وافر من قذائف الهاون، وأخرى مضادة للدروع، وصنعت نماذج محلية لمضادات الدروع كـ«البنا» و«الياسين» و«البتار»، وبذلت جهداً مشابهاً في الاستغناء عن العبوات البرميلية (100 كجم)، وصولاً إلى عبوات صغيرة للأفراد والدروع.

حرب «الرصاص المصبوب»

كان عنصر المباغتة أهم ما ميّز حرب «الرصاص المصبوب» التي بدأت عملياتها (2008- 2009) بضرب المقارّ الأمنية والشرطية لحكومة غزّة السابقة، ولم تكن فصائل المقاومة، التي أرهقت من الاجتياحات المتواصلة، على درجة عالية من الجاهزية والتخطيط المنظّم في مواجهة العدوان.

إثر ذلك، عانت «القسام» و«السرايا» خللاً كبيراً على المستوى الأمني والعسكري، ولم يكن تقدير القيادة السياسية دقيقاً لمجريات التصعيد، ما ساعد على تحقيق السلاح الجوي، وهو الذراع الطويلة للعدو، أهدافاً كثيرة، واغتال قيادات مهمة من المقاومة سياسية وعسكرية وحتى حكومية، فضلاً عن الردع النسبي لقدرات المقاومة الصاروخية عبر استهداف منصات إطلاق الصواريخ

على نهج حزب الله عسكرياً... وسياسياً لو أمكن

التعاون بين المقاومة الفلسطينية وحزب الله أثمر عن استنساخ النموذج العسكري (آي بي ايه)

غزة ـ **سناء كمال**

لم يكن اقتباس الأغاني والأناشيد الثورية اللبنانية على الشاشات الفلسطينية محل التقليد، أو المحاكاة، الوحيد، فالمقاومة عملت على تنفيذ ما فعله حزب الله مع إسرائيل على مدار سنوات مضت، وإن كان الحزب قد سبق الفلسطينيين في كثير من التكتيكات والوسائل، فإنها لم تفقد فعالياتها في مواجهة الاحتلال.

وظهر قبل الحرب، وخاصة مع تخلي حركة «حماس» عن الحكم في غزة أنها قد أقامت مراجعة خلصت إلى ضرورة تشكيل نموذج مشابهة حزب الله في الساحة اللبنانية، وإسقاطه على المشهد الفلسطيني، أي هناك من يحكم، وآخر عليه تأمين الحدود من أي ضربات عسكرية إسرائيلية، أو مقاومتها وقت الحرب.

ومن أكثر الأذرع العسكرية قدرة على تطبيق هذا النموذج كتائب القسام التابعة لـ«حماس» بصفتها قوة عسكرية كبرى في القطاع، ما يتيح لها فرصة تطبيق النموذج اللبناني إذا قررت «حماس» فعلياً التخلي عن الحكم ومشروع الوصول إلى السلطة. ولا يعني هذا انزواءها عن تمثيل سياسي، عبر حزب جديد، يضمن لها الحضور في المشهد لتكون ذات محدد أساسي في اتخاذ القرار، وإمكانية المزاوجة بين المقاومة والسياسة.

وتكفي نظرة واحدة إلى سير العمليات العسكرية الهجومية والدفاعية، والرد الصاروخي، والقدرات التسليحية، ليظهر جلياً أن التعاون بين المقاومة وحزب الله أثمر عن استنساخ النموذج العسكري مع مراعاة الفروق في الجغرافيا والخصوصية الفلسطينية، وهو ما وصفته بعض المصادر الحمساوية بأنها «غيرة المقاومة من المقاومة». لكن ماذا عن السياسة وتأثيرها على المستقبل العسكري، وإن كانت «حماس» قد استغلت وجودها في الحكم لتقوية الذراع المسلحة لها، على خلاف تجربة «فتح»؟ أيضاً، هل يعني خروج الحركة الإسلامية من لعبة الحكومات أنها ستعود إلى المقاومة البحتة، أم ستحاول تطبيق نموذج آخر يحقق المزاوجة بين السياسة وخيار المقاومة، وخاصة أنها لا تزال تحتفظ بكتلة برلمانية كبيرة؟ محللون وباحثون سياسيون رأوا أن الفرصة مناسبة لخروج «حماس» من «آثام السياسة»، وخاصة أن هناك من يرى أنها «نضجت سياسياً» على المستوى الداخلي أقله، وهو جزء من رأي أحمد يوسف، وهو المستشار الأسبق، لرئيس وزراء حكومة غزة السابقة،